

بين المقاد والرافعي

مناقشات وشروح
للأستاذ سيد قطب

- ١١ -

—>>>><<<<—

عيب على كثير من الاخوان ، وكثير من القراء ، انشغالي في بعض الأحيان بالردود على بعض من كتبوا في الرسالة — عن الموضوع الأسيل الذي اخترت الحديث فيه ، وعن شرح الآراء العامة التي أدليت بها في أدب المقاد وأدب الرافعي ، وسوق الأمثلة وتقرير الحقائق

وعند هؤلاء الاخوان أن آخذ بسبيل في الموضوع الأسيل غير ملتفت إلى شيء مما يقال — لأنه لم يقل شيء يستحق العناية به — وهذا كان رأيي الذي صرحت به مرة ومرة

وبودي لو أظمت هؤلاء الراجعين في الاستفادة ، ولم ألق بالي إلى شيء مما يقال ، ولكنني في الواقع أرى هناك ارتباطاً وثيقاً بين الموضوع ذاته وبين المناقشات التي تدور حوله ، لاني موضوعها وقيمتها ، ولكن في شكلها وبواعثها

وأفسر هذا فأقول : إن المدرسة المقادية تعني بتصحيح المقاييس الأدبية عنايتها بتصحيح المقاييس النفسية ، وقد أوردت من هذا نماذج في شعر المقاد ، عن « عدل الموازين - والبوسة والبشاشة - ودرجات الفضائل . . . الخ » فإذا ما عنيت بمناقشة الأستاذ المريان ، والأستاذ مظهر ، أو سواهما ، فأنما أوجه عنايتي إلى « كشف » العوامل النفسية التي تبطنها على الكتابة ، وإلى « فضح » الظواهر المصطنعة التي تبدو فيها الأحكام ، وإلى « تشخيص » العنت و « المدالة الزائفة » في إصدارها

وهذا كله يعني المدرسة الحديثة عنايتها بالآراء الأدبية ذاتها ، فما قصد هذه المدرسة إلى تصحيح معايير الآداب والفنون ، إلا وهي تعني من ذلك تصحيح الأمزجة والنفوس . وهي لا تقصد بهذا الدعوة إلى المبادئ الخلقية التي يحترمها الناس بقوة العرف والاستمرار ، ولكن تريد أن تصح النفوس فتكون هذه المبادئ

أترأ لتفاعلها مع الحياة ، أو جزءاً من غذائها اليومي الذي يدخل في كيانها ، لا أن تكون كالثوب تلبسه وتحمله حسب المناسبات ! ومن هنا كشفت عن « المدالة الفريضة » التي تصف رد المقاد على الرافعي بأنه « سباب وشتائم » وتصف نقد الرافعي بأنه « مزه عن العيوب » وكان هذا الكشف بالأمثلة التي لا تدع قولاً لقائل !

ومن هنا كذلك كشفت عن « النزاهة المعجبية » في وصف الدفاع عن المقاد ومدرسته بالشذوذ ومناصرة شخص على شخص ووصف « على السقود » بأنه « مثال يحتذى الذين يريدون أن يجرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص » وجئت كذلك بما استنطعت أن أتقله عن الرافعي من أسلوب في شتم المقاد !

وأنا أعتبر هذا جزءاً من تصحيح أساليب الأدب — باعتباره وسيلة لتصحيح النفوس — ولا أدري أنني عدوت الموضوع الذي أتحدث فيه على هذا الاعتبار .

فأما الواقع فإنني أحب لهذه الكثرة التي كتبت ترد على دون أن تقول شيئاً في « الموضوع » مع مطالبتي أن أترك « اللاتية » وأتناول « الموضوعية » في أدب المقاد وأدب الرافعي !

وهأنذا أراجع كل ما قيل . فإذا أرى ؟

كل ما كتبه أنصار الرافعي ، إنما هو شتائم شخصية ، لسيد قطب ، أكثرها في أدبه وخلقه ونفسه — وهو خارج نهائياً على الموضوع — وأقلها في تفكيره واستمداده وإطلاعه — وهو قد يتصل بالموضوع — ولكن بدون دليل ، إلا إشارات البكر ، وتعبيرات العوام عن المسائل المهمة في نفوسهم ، التي لا يحسنون التعبير عنها ولا يقدمون الدليل .

أنيمنكم — يا هؤلاء جيماً — أن تشتموا كاتب هذه الكلمات ؟ لئن كان الأمر هكذا فأنا معكم أعاونكم في شتمه إذا مجزتم ، وأصرح لكم عنه بما يتمتع خوف تقاليد الأخلاق — لاجياء نفوسكم — من التصريح به !

ولكن ماذا يعني هذا ، وأي شيء يكون قد استوى لكم ، أو المتأدين والقراء ؟ إنه ليبقى وراء ذلك آراء أبدت في أدب الرجلين وأمثلة قدمت لهذه الآراء ، وشروح تضمنت بعض النظريات في الأدب وفي الحياة ؟ وكل هذا قد بقي سليماً كما هو ،

تعالّم وتحفّز ، أو تفاهة وضآلة . ولما لم يفلح في تحويل هؤلاء
الناس - كلهم - إلى معالجة الموضوع

وأبدأ بكلمة الأستاذ « رفيق البايدي » وقد مهد لها بدالة
الصداقة والزمانة ، وساقها مساق من يورد رأيه - وليكن
ما يكون - مما يشفع في تناولها بالتحجيص
أول ما يراه أنني لم أقرأ كتب العقاد - على مذهبي من
ضرورة الثقافات المختلفة لقراءتها - ولم أقرأ كذلك كتب
الرافعي كلها

فأما العقاد ، فقد قلت : إنني فهمته بمقدار استعدادي وإطلاعي ،
وإنني سأرتقي في فهمه كلما زدت ثقافة واتسعت جوانب نفسي .
فكان تفسيري له في هذه الحدود الضيقة بالنسبة له ، الواسعة جد
الاتساع ، بالنسبة لمن ينصبون أنفسهم نقاداً له ، فيخرجونه من
عالم الشعراء ، بل الأدباء ، وهم جالسون في راحة غيبية ، و« طمطمطة »
بليدة !

وأما الرافعي فقد قرأت له معظم ما كتب ، فلم أر في شيء
منه دلائل على أن هناك استعداداً ، لأن تخرج هذه الطبيعة
شيئاً مما أطلبه ، يحفزني لقراءة الباقي ، على الأمل في وجود
ذخيرة نفسية . وقد عنيت أن أقرأ له الكتب والمقالات ، التي
تفيض النفس الانسانية فيها بالشمور الخالص - عادة - فإذا
لم يكن في هذا المجال صاحب ذخيرة ، فما هو بصاحب ذخيرة على
الاطلاق

أما الأمثلة التي سقتها ، فليست منتقاة على اعتبار أنها « مما
يوقع فيه » ولكن لأنها أدل على تصور طبيعة خاصة ، أضبة
من الذخيرة الانسانية ، ومن دفعة الحياة والمقيدة (المقيدة في
الأدب والحياة لا في القاموس !)

ولي رأي في الأمثلة لا بأس من إرادته هنا . فالأديب قد
يخطئ وقد يسهط في كثير من الواضع ، ولكنه يبتغي بمد أديباً
لا تسلبه أخطاؤه ولا يسلبه ضعفه ، صفة « الانسانية » في أديبه
(لا الإنسانية التي تقابل الحيوانية في تكوينه كما فهم بعض من
ينهمون !) ولا تسلبه صفة « الطبيعة الفنية » وقد يخطئ أديب
آخر صرّة واحدة ، فتسلبه هذه المرة كل تلك الصفات

لم تتناولوه ردودكم ومناقشاتكم ، لأن شذيمة كاتب مهين شغلتمكم
عن كل ما عداه من الآراء والأمثال !

ولقد أظهرت هذه المركة أنكم تمضون في الشتائم والتهم
فينفصح لكم المجال ، حتى إذا قاربتم « الموضوع » وأردتم مناقشة
الأمثلة ، ظهر العجز الفاضح والقصور في الفهم والاطلاع .
ليست كلمات الأستاذ « الطنطاوي » بعيدة ، وقد عجت لاستطاعة
الأستاذ « عبد الوهاب الأمين » أن يصبر على مناقشتها كما عجت
لصبر الأستاذ « كامل نصيف » في الرد عليها ، في حين لم أجدني
مستطيعاً - على فرط المحاولة - أن أنظر إليها كشيء يستحق
الالتفات !

وكيف يمكن أن تلتفت مثلاً لرجل يكاد يفهم من قول العقاد
عن الجييون « يا عميد الفنون » أننا سنأتي غداً بقرء بجملة عميد
« كلية الآداب » أو « الفنون الجميلة » فيفرق لهذا الحدث
الخارق من المجددين ! ثم ينتفض ذعراً من قوله « يا أبا المبقرى
والبهلوان » ويسأل الله الملامة من هذا « الاعتراف » الذي
هو لحسن الحظ « حجة قاصرة » !

أو كيف يمكن أن تصبر على مناقشة رجل ، يحلف لك بالطلاق
أن كلمة « الجييون » لا تدخل في شعر عربي ، أو يستحاف سواء ،
ويفتي له بمد طلاق امرأته ! ويكون الحكم طبيعياً هو « مأذون
الشرع » في قيمة الآداب !

وليته مع ذلك ابتكرها ، فاعلم هي بينها قوله الرافعي في
« على السفود » عن بعض الألفاظ في قصائد العقاد !

ووددت لو يحلف الأستاذ على هذا ، فأفرق غداً بينه وبين
زوجه - إن كان متزوجاً - لأن « ابن الزوى » وحده وهو
شاعر عربي ذكر من مثل هذه الألفاظ العشرات في ألوان
الطعام وأسماء الفواكه والخمر . كما ورد في أدب غيره !!

ويعد هذا تجرد من يكتب فيقول لك : لم لا تناقش هذا
الكلام ؟ أناقشه ؟ أكل من لاقك في الطريق فقال كلاماً - أي
كلام - تقف لتناقشه ؟

على أنني وددت لو خفت حدة هذه المناقشات ، ولو عاد إليها
هدوؤها الذي بدأها به في الكلمة الأولى . وهأنذا أحاول الاهتمام
ببعض ما لا يصح الاهتمام به من الأقوال ، وتنامي ما فيها من

ثم يسألني رأبي في أبيات اقتطعها من قصيدة للمقاد ، وشمر المقاد وحدة لا يد من عرضها كاملة - ومع هذا فأى شيء ؟ لعله يريد أن يقول : ها هو ذا المقاد يشبه الحسن بالجوهرة ، ويذكر اللآلي كما ذكرها الرافعي !

وهذه ملاحظة شكلية ، فاقلت : إن كل من ذكر هذه الألفاظ يكون خواء من تقدير الجلال الروحي ، ولكن الذي يقول كما قال الرافعي ، ويبدى ويميد ، ويراها أجمل من الطبيعة كما قال عن « النهر » ... يكون كذلك

فأما حين تقول : إن الحسن جوهرة ، ثم لا يكمل البيت حتى تقول : « لها الثراء » « ثراء النفس أثمان » وحين تقول : إن هذا الحسن يناله من لا يعرف قيمته ، ويحرمه الخير بجماله وسحره وطبيعته ، كالجوهرة التي يحرمها اللآل ويقنو نفسها من لا يسومها ... الخ

حين تقول مثل هذا فنحن في صميم الشعور الروحي . والجوهرة واللآل هنا أدوات للتشبيه ، وليست مقصودة لذاتها ، ولا مغالى في قيمتها . « ثراء النفس » هو الالتفت إليه ، والقدر ثمنا لهذا الحسن الفريد

أما إنكار الأخ لشاعرية المقاد فليس لي فيه كلام . ووددت - والله - لو أننى أملك طبيعة فنية أخرى ، أهباللزميل . ولكنى آسف معذور . وكذلك قولى في الحديث عن « الجييون » !

أما أسئلة « ع... دمشق » فوددت لو خلت من هذا « الجفاف الناشز » في آخرها . ومع هذا فسأغض الطرف عنه ، وأعتبرها أسئلة لمستفهم لا متعلم !

فمن للسؤال الأول : أذكر أن فى الأشياء حياة نابضة فى ضمائرنا ، وهى أعمق وأولى بمتناية الفنان من الحياة الظاهرة على سطوحها ولو اتصلت بها - فجاءة الزهر الظاهرة تبدو فى لونها وألوانها وطراءها ... الخ . أما الحياة النابضة فى ضميرها فهى المتصلة بتعبير الحياة المعنى فى هذه الزهرة ، وقصد الطبيعة من إنشائها . وهى الحياة التى تستمد من نهر الحياة الكبير الجارى منذ بدء الخلق إلى نهايتها ، المتداخلة أوضاعه فى كل حى وجد أوسيوجد . وهى الحياة التى تكون حلقة فى سلسلة الحياة الكبرى المتطورة من انخلة الواحدة إلى الانسان . وهذا الالتفات

ومرجع ذلك هو « نوع » الغلطة ومقدار دلالتها على فهم الرجل للحياة ، وعلى نوع إحساسه بها . كارجل الذى يتحدثك عن زيارته لمدينة القاهرة ، فيترك كثيراً مما فيها من المشاهدات ويغضى فى وصف الكثير ، ولا يدل ذلك على كذبه فى وقوع الزيارة ؛ ولكنه لو قال مثلاً : « إنه كان من المشاهد التى رآها أسد يخرق الشوارع والطرق » لحسنت من فورك بأنه كاذب فى دعواه ، وهى مع هذا غلطة واحدة لا غلطات !

فحين يقول الرافعي : إن الحبيبة لا تتلقى بقلب حبيبها بمد انتهاء الحب إلا بحيطين اثنين هما غيظها له ، وغيظه لها ... يدل على أنه لم يحس الحب يوماً ما ، ولم يحسن ملاحظته فى غيره ، بل لم يكن ذا طبيعة قابلة للحب ، ولا مستعدة لتلقى دفعاته وانفساحه ولو كتب بعد ذلك عن الحب ألف كتاب

وحين يقول ما يفهم منه أنه يرى النهر الذى حافتاه من الذهب والفضة ومجره من الدر والياقوت ، أجمل من النهر الذى حافتاه من العشب الأخضر ، ومجره من الدر والطين ... يدل على أنه لم يحس الإحساس بجمال « الطبيعة » ، بل على أنه لم يوهب الطبيعة التى تحس هذا الجمال

وهكذا كل مثال جئت به لمثل هذه الناية ، فهى غلطات : « الأسد الذى يخرق شوارع القاهرة » لا غلطات النسيان والضعف الطارىء ، والخطأ المارض فى التعبير ، ولعل فى هذا البيان كفاية

ولعل القسوة التى يتخيلها الأستاذ ، ليست فى الحكم الذى أصدرته ؛ ولكنها فى وضع الرافعي مقابلاً للمقاد ، والجمع بينهما فى عنوان ؛ فن هنا بدأت مطالبة الرافعي بأدب الطبع ، وأدب النفس ، لأن المقابل له قياض بهذا النوع ، مبرز فيه ، بل هو ميزته ورمزته . وقد كان من جراء مطالبة الرافعي بهذا اللون الرفيع من الفن الأدبي ، ظهور خوائه ، وإنكار أدبه (إذ كان المطلوب نوعاً خاصاً منه يملو على مجرد الأسلوب التمايل ، والجل المنقوشة) . فهذه هى القسوة . ومتى أعفينا الرافعي من أدب النفس والطبع ، فقد نجد بعد ذلك شيئاً فى التعبير ، وفى الأخذ بطريق خاصة فى هذا التعبير ، ولكن ما قيمة ذلك فى عالم الطبايع الفنية ، وفى معرض التعبير عن النفس وتمثيل الحياة ؟

الأخير هو الالتفات الفنى لنظرية دارون ، الصالح لأن يتناوله الفن والأدب ، لأنه يتناول الحياة فى معرض أطوارها وغاذجها المعبرة

وعن السؤال الثانى : أذكر أن السائل أخطأ فى إرجاع الضمائر إلى مانعود عليه فى الجملة . فنشأ هذا اللبس ، فأنا لم أقصد أن الحياة الظاهرة على سطوح الأشياء — غير أشكال « الحياة » وصورها . إنما أردت أنها غير أشكال « الأشياء » وصورها فلادعى للسؤال . أما أن العناية بالحياة فى الضمير والحياة فى الظاهر أولى بالنتائج الفنان من صور الأشياء وأشكالها ، فهذا حق . والذى يقول :
وكأن محرم الشقيق إذا تصوب أو تصمد
أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد
لا يرى غير أشكال الأشياء وصورها ، ولا معنى بحياة الشقيق فى سطوحها ولا فى أعماقها ، فيكون قوله تافهاً وإن سومه عشاق للتشبهات النفيسة بسمر كبير .

وعن السؤال الثالث : أذكر أن الخواج النفسية والصور الذهنية ، وأدب الدهن ، وأدب الطبع ، تدل على ألوان من الأدب تكاد الآن تكون قد أخذت وضوح دلالة « العلم » على المسمى . وقد ضربت لها أمثلة — مع هذا — فمن لم يكن قد سمع شيئاً عن هذه الألوان من الأدب ، ولم يكن قد أمكنه الاتفاغ بالأمثلة التى سبقها ، فليقرأ ، وليتظرو حتى تتضح فى نفسه هذه المعانى
أما السؤال الرابع فلا معنى له بعد ما قلت عن أسلوب المقاد ما قلت ، وبمد ما وعدت بالافاضة عن هذا الأسلوب . فليقرأ السائل كلماتى كاملة . وليراجع كلمة الأستاذ عبد الوهاب الأمين فهمى مفصحة عن هذه الناحية

وأمام ملاحظة الفاضل « على كمال فلسطين » فنصفها فى مرضه ؛ وقد نشأ هذا من اضطراب فى ترتيب بعض الجمل ، وكثيراً ما يقع مثل هذا فنكتفى بفضيلة القارى . ولكن مع هذا بقى للتناقض بين قول شوبنهاور وتلخيص الراقى واضحاً
فالراقى يقول : « فان حصل كلام هذا الفيلسوف أن ما تراه بسبب من إرادتك وغرضك وشهواتك ، فجماله فيك أنت لا فيه لأنه فى هذه الحالة صورة الاستجابة إلى ما فيك ، فلو لم يكن

بمك أنت هذا الفرض ، لم يكن معه هو ما خيّل لك من الجمال . فهو على الحقيقة (باعتبار الفكرة المجردة لا جمال فيه)
وأول هذا الكلام لا صلة بينه وبين شوبنهاور ، ولا علاقة فى منزع ولا اتجاه ، وإنما هو رأى آخر فى تحليل الجمال يعتبر رخيصاً جداً إذا قيس مستواه بمستوى تفكير شوبنهاور فى رأيه وآخر هذا الكلام مناقض تماماً لرأى الفيلسوف (راجع ما بين القوسين الكبيرتين على كلام شوبنهاور)

وبينا هو يقول — عن شوبنهاور خطأ — : « فهو على الحقيقة باعتبار الفكرة المجردة لا جمال فيه » — وهو عكس رأى شوبنهاور — يعود فيقول : « فالنتيجة من ذلك أن الأشياء تحزننا كلما ابتعدت من عالم الفكرة واقتربت من عالم الإرادة ، وأنها تفرحنا كلما ابتعدت من عالم الإرادة واقتربت من عالم الفكرة » وهذا عكس ما نسبته الراقى أولاً لشوبنهاور ، وإن كان فى حقيقته هو رأى الفيلسوف المسكين !

الشيء باعتبار الفكرة المجردة جميل فى رأى الفيلسوف الصحيح . والشيء باعتبار الفكرة المجردة لا جمال فيه ، فى رأى الذى ينسبه الراقى إليه . وهذا هو سوء الفهم والتخطيط وعلى كل فانا شاكر لحضرة الأديب ملاحظته

أما الأستاذ سعيد المريان ، فقد شغلنا عنه وعن كلامه الطويل بما هو لائق أن نتحدث فيه ، فمعدرة يا أستاذ سعيد !
(حلوان)
سيد قطب

إشترك الصيف

قبل إدارة الرسالة والرواية الاشتراك الشهرى
فى المجلتين أو فى امرهما أسريهما على حضرات القراء
فى راحة الصيف ومقرار الاشتراك فى الرسالة
أربعة قروسمه وفى الرواية قروسمه ترفع سلفاً